الفصل الثالث

رحلة الصيـــد

مما لا شك فيه أن الصيد عند العرب كان مطلباً ضرورياً فرضه عليهم الواقع البيئي المعاش، فأهل الوبر قد اعتمدوا على الصيد في حياتهم، وبذلوا ما في وسعهم رغبة في الحصول على متعة من متع النفس، وشوقاً لأكل لحوم الطرائد.

وقد يشترك اثنان في لذة الظفر: الملك المتصيد والقانص المكتسب، غير أن الملك يطارد الوحش بخيله وجوارحه وضواريه، ولا يطلب غفلاتها ولا يغتنم غراتها وإنما يكافحها مكافحة، وينازلها منازلة. أما القانص المكتسب فيكون على عكس ذلك؛ لأنه يغتال طرائده بشباكه وحبائله، ويخفي شخصه عنها[1].

وهنا يقف الشاعر الجاهلي - الذي لم يكن مجرد إنسان يعيش وسط صحراء - معلناً تصوره أمام المشاهد التي يراها ماثلة أمامه، إما في صورتها الطبيعية لها، وإما بعد أن يضيف لها تصوره الذاتي، عاكساً موقف الإنسان الجاهلي منها.

ولذلك فقد تعددت التفسيرات النقدية حول مشهد الصيد، وذلك لاستخراج

---

(١) شعر الطرد، ص ١٣.

دلالته الفنية في قصيدته الشعرية..فالجاحظ - مثلاً - قد أشار لما للحيوان من قيمة رمزية خلال فهم الشاعر لمعاني الحياة والموت؛ فقال: "ومن عادة الشعراء إذا كان الشعر مرثية أو موعظة أن تكون الكلاب التي تقتل بقر الوحش.. وإذا كان الشعر مديحاً وقال: كأن ناقتي بقرة من صفتها كذا... أن تكون الكلاب هي المقتولة، ليس على أن ذلك حكاية عن قصة بعينها، ولكن الثيران ربما جرحت الكلاب وربما قتلتها، وأما في أكثرمن ذلك فإنها تكون هي المصابة والكلاب هي السالمة والظافرة وصاحبها الغانم"(١).

ولا أدل على ذلك من عينية أبي ذؤيب، "فقد جاءت فقرة الصيد في القصيدة في معرض الرثاء، واتخذ منها الشاعر وسيلة للتأسي والعزاء؛ ذلك لأنه قالها لما أصاب الطاعون أولاده الخمسة؛ فهلكوا جميعاً في عام واحد"(٢).

فكما هو معلوم في تلك العينية أن مشهد الصيد قد استغرق فيها أربعة وثلاثين بيتاً، جعل الشاعر عزاءه عن هلاكهم بهلاك حمار وحشي معتصم مع أتنه في الفلوات على يد صائد.. ولا يفوته أيضاً أن يجعل نصيباً من عزائه في هلاك أولاده بهلاك ثور وحشي على يد صائد آخر.

وتبرز فكرة الصراع بين الحياة والموت من خلال مشهد الصيد في قصيدة الشاعر عند كثير من الباحثين. فتناول الشعراء لحيوان الوحش في مشهد الصيد إنما هو تجسيد حي لقصة الصراع بين الحياة والموت، ولاسيما حين يبرز الصراع مع البقر الوحشي؛ فهذه تخرج أقصى ما عندها من النشاط ولابد من الانتصار(٣).

ولعل مشهد الصيد غالبا ما يكون حديث صراع بين الحياة والموت في صورة الصياد، حيث يتربص بالثور أو البقرة؛ فيطلق كلابه ثم سهامه. وقد يقع الثور فريسة سهلة، أو قد ينجو بنفسه فيهرب أو يأوي إلى ظل أرطأة.

---

(١) الجاحظ: الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، نشر مكتبة مصطفى البابي الحلبي القاهرة ١٩٦٩، ط ٣، ج ٢، ص ٢٠.

(٢) شعر الطرد، ص ٦٣.

(٣) د. حسين جمعة: مشهد الحيوان في القصيدة الجاهلية، نشر مكتبة الشباب، د.ت ، ص ١٦٠.

وقد يربط الشاعر بين مصير الحيوان وموضع القصيدة، فيغلب أن ينجو الحمار أو الثور أو غيرهما في قصائد المديح، وقد يلقي مصرعه في الرثاء[١].

وهناك من رأى أن رحلة الصيد في الشعر الجاهلي لم تكن رحلة للتسلية والمتعة، وإنما كانت رحلة أمل وعمل؛ فالشاعر يريد أن يخرج من وحدته ويفر من غربته إلى عالم أوسع وأرحب يحدوه الأمل في أن يعيش حياة أسعد وأجمل[٢].

وذهب آخر من الباحثين إلى: "أن لوحة الصيد محكومة بتقاليد فنية وموضوعية لا تخرج عليها أبداً، خصوصاً حين يكون الثور هو الصيد المطلوب؛ فالصائد مجد في تتبع الثور الذي يظهر دائماً على مسرح الأحداث وحيداً، قلقاً ضامراً، جائعاً، وهو لذلك يطلق كلابه في موعد بزوغ الشمس في مطاردة عنيفة تلح فيها هذه الكلاب على إيذائه ومطاردته إلحاحاً غريباً، ولكن هذه المطاردة العنيفة محكومة في كل القصائد بنهاية محتومة هي قتل الكلاب ونجاة الثور قبل مغيب الشمس - وهذا الثور المنتصر - ينفرد دائماً بنفسه تحت شجرة الأرطأة، يفكر في مصيره، ويتطهر بماء المطر بعد تلك المعركة الشرسة التي خاضها في مواجهة قوى الشر، وهو يجلس وكأنه يصلي"[٣].

ويرى البحث - بعد عرض تلك التفسيرات - أن رحلة الصيد لها نمطان في قصيدة الشاعر: النمط الأول يتمثل في قيام الشاعر برحلة حقيقية على أرض الواقع. وكان لهذه الرحلة هدفان: الأول ترفيهي، كرحلات امرئ القيس التي سجلها في ديوانه. حيث تبدو عنايته بالطرد والقنص، فإذا ما نوى القيام بالرحلة أعد العدة من الليل، فإذا به يهيئ الحصان بالسرج واللجام، ويمده بالطعام والشراب، ويحفظه حتى يكون في متناول يده، ثم يجهز الأسلحة ومعدات الصيد

---

(١) مدخل إلى الشعر الجاهلي، ص ١٣١. وانظر كذلك: الصورة الفنية في الشعر الجاهلي، ص ١٤٣. ود. عبد القادر القط: في الشعر الإسلامي والأموي، نشر مكتبة الشباب، بدون تاريخ، ص ٤١٢. وقراءة ثانية لشعرنا القديم، ص ٨٠، ٨١.

(٢) الشعر الجاهلي تفسير أسطوري، ص ١٧٧.

(٣) د. إبراهيم عبد الرحمن: مقالة، تفسير لوحة الصيد تفسيراً ميثولوجياً، مجلة فصول، المجلد الأول، العدد الرابع القاهرة ١٩٨١، ص ١٣٢.

من: قسى ورماح، ولا ينسى أن يأخذ معه الفتيان، والخدم، والطهاة؛ ليكون على أتم استعداد للخروج وسط الصحارى المقفرة، والفيافي المترامية الأطراف.

ومن الملاحظ أن امرأ القيس يخرج لذلك في الصباح الباكر، قبل أن تستيقظ الطيور من وكناتها، ولا يعبأ في سبيل ذلك بما يلقى من متاعب السفر، ومشقات الرحيل.

ويلاحظ أيضاً أنه دائماً يحاول أن يظهر في شعر رحلته بمظهر الصياد المحنك الخبير بمكامن الفرائس، وقطعان الوحش، حيث يفاجئ صيد الوحش بفرسه الذي يجمع صفات لا حد لها من القوة والنشاط والذكاء في مفاجأة طرائد صاحبه، حتى تخر صرعى بسبب الهجوم المحكم والطعنات القاتلة.

كل هذا إنما يدل على حب امرئ القيس لرياضة الصيد، حيث أبدع في تصوير تلك الرياضة التي تمثل له سلوة عن الأحزان والهموم التي ما إن ألمت به خرج وفي نفسه حباً وعشقاً لمطاردة صغار الوحش، وقطعان البقر.

فيقول امرؤ القيس في معلقته، واصفاً أحداث رحلته التي قام بها[1]:

وقد أغْتدِي والطّيرُ في وُكُناتِها ... بمنجردٍ قَيْدِ الأوابدِ هَيْكَلِ
مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبلٍ مَدْبِرٍ معاً ... كجُلْمودِ صخْرٍ حَطَّهُ السَّيلُ من عَلِ

ثم قال:

وباتَ عليه سَرْجُه ولِجامُهُ ... وباتَ بِعَيْنِي قائماً غيرَ مُرْسلِ
فَعَنَّ لنا سِرْبٌ كأنَّ نِعَاجَهُ ... عَذَارَى دَوارٍ في المُلاءِ المُزَيَّلِ
فأدْبرن كالجَزْع المفصَّل بينَه ... بجيدٍ مُعَمٍّ في العَشيرة مُخْوَلِ
فألحَقنا بالهاديَات ودُونَه ... جواحِرُها في صَرَّةٍ لم تَزَيَّلِ
فعادَى عِداءٍ بينَ ثَوْرٍ وَنَعْجةٍ ... دِراكاً ولمْ يُنْضَحْ بماءٍ فيُغسَلِ
وظلَّ طُهاةُ اللَّحم مِن بين مُنْضِجٍ ... صَفِيْفَ شِواءٍ أو قَديرٍ معجَّلِ

(١) الديوان، ص ١٩، وما بعدها. وانظر كذلك ص ٣٦، ٣٧، ص ٤٦-٥٥، ص ٧٥، ص ١٦٠-١٦٢، ص ١٧٢-١٧٦. أما عن باقي شعراء المعلقات فقد ذكر ذلك زهير في ديوانه، ص ٤٩، ٥٠، ص ٨١-٨٦. وانظر كذلك ديوان عبيد بن الأبرص، ص ٣١، ٣٢. وأما عن باقي شعراء المعلقات فقد ظهرت صورة صيد الوحش بدلالات رمزية مختلفة.

أما الهدف الثاني لها فيتلخص في حاجة البدوي إلى الصيد فهو وسيلة من وسائل الرزق، قد فرضتها عليه ظروف الحياة البدوية المحيطة به.

فامرؤ القيس في الأبيات التالية يصف قانصاً هرماً من بني ثعل، لايزال على الرغم من شيخوخته يعتمد الصيد وسيلة لكسب العيش، فيقول[١]:

رُبَّ رَامٍ مـــن بَنِـــي ثُعَـــلٍ مُـــتْلِجٍ كفَّيْـــهِ في قُتَـــرِهْ
فَهُـــوَ لا تَنمِـــى رَمِيَّتُـــهُ مالّـــه لا عُـــدَّ مـــن نَفَـــرِهْ
مُطْعَـــمُ للـــصَّيْدِ لـــيس لَـــهُ غيرَهـــا كَـــسْبٌ علـــى كِبَـــرِهْ

والنمط الثاني لا يمثل رحلة حقيقية للشاعر، بل يعرض الشاعر مشهداً من مشاهد الصيد، هذا المشهد له دلالاته الفنية المتعددة عند الشاعر؛ حيث يعرض الشاعر في هذا المشهد النهاية المحتومة لصيد الوحش، حينما يقع الثور الوحشي أو البقرة الوحشية في صراع مع كلاب الصائد.. فمرة ينجي القدر الثور قبل مغيب الشمس؛ حتى ينفرد بنفسه تحت شجرة الأرطأة، يفكر في مصيره، ثم يتطهر بماء المطر بعد تلك المعركة الشرسة التي خاضها في مواجهة قوى الشر. ومرة أخرى - حسب القدر - تصرع سهام القانصين البقر الوحشي أو ترعد فرائص حمر الوحش.

وقد تكون الغاية من إيراد هذا المشهد في القصيدة التعزي والتسلي عن المصائب، "وغالباً ما يحدث أيضاً في مقام الرثاء، حيث يذكر الشاعر فداحة الخطب الذي ألم به وعظم المصيبة التي نزلت بساحته، ويعلن ضعفه أمامها، وعجزه عن ردها"[٢].

ولكي تتضح فكرة البحث فلابد من دراسة عناصر مشهد الصيد التي تناولها شعراء المعلقات تناولاً شائقاً.

---

(١) الديوان، ص ١٢٣، ١٢٥، ١٢٦.

(٢) شعر الطرد إلى نهاية القرن الثالث الهجري، ص ٧٠.

عناصر مشهد الصيد:

لقد اختلف شعراء المعلقات في التعبير عن رحلة الصيد أيما اختلاف، فتارة يسجلها الشاعر في قصيدته بكامل عناصرها وفي إطار قصصي بديع، وتارة أخرى يذكر الشاعر جانباً مهماً، على سبيل وصف الناقة بالصيد الوحشي، حيث يتربص الصياد له، فيطلق كلابه أو سهامه؛ ليقع الثور فريسة سهلة أمام تلك السهام أو لينجو مما لحق به.

ولقد اتضحت عدة عناصر لمشهد الصيد، من أهمها:

١- وصف الإنسان الصائد.
٢- أدوات رحلة الصيد.
٣- وصف صيد الوحش.
٤- نهاية مشهد الصيد.

١- وصف الإنسان الصائد:

وللصائد صورتان عند شعراء المعلقات: أولهما صورة الصائد الذي يتخذ الصيد متعة ورياضة بدنية ونفسية؛ فيسعد بهذا الصيد أيما سعادة مع غلامه أو نفر من أصحابه، "ويظهر الغلام في أكثر الصور قانصاً حقيقياً، وما على الصائد المترف إلا أن يصدر أوامره إلى الغلام، فالغلام هو الذي يكتشف القنائص، فيعود إلى سيده... حاملاً مصاده ويقوم الطهاة بطهو اللحم، أو قد يقوم السيد ومن معه من الرفقاء بهذا العمل"[(١)].

وفي ذلك يقول امرؤ القيس[(٢)]:

فَبيْنَـــا نِعـــاجُ يَـــرْتَعينَ خميلـــةً ... كمشْيِ العَذّارَى في المُلاءِ المهدَّبِ
فكـــان تنادِينـــا وعقْـــدَ عِـــذارِه ... وقال صِحابي قد شأوْنَك فاطلبِ
فلأْياً بلأْيٍ مـــــا حَمَلْنا وليدَنـــا ... على ظَهْرِ محْبوك السَّراةِ مُحـــنَّـــبِ

(١) الصورة الفنية في الشعر الجاهلي، ص ٣٧.
(٢) الديوان، ص ٥٠.

ويقول أيضاً في قصيدته التي بدأها بقوله[١]:

وقد أغتدِي قبل العُطَاس بهيْكَلٍ ... شَديدِ مَشَكِّ الجنْبِ فَعْمِ المُنطَّق
فظلَّ كمثلِ الخِشْفِ يرْفَعُ رأْسَهُ ... وسائره مثلُ التُّرابِ المدقَّقِ
وجاءَ خفيَّاً يَسْفِنُ الأرضَ بطنُه ... ترى التُّربَ منهُ لاصقاً كُلَّ مُلْصَقِ
فقال أَلَا هذا صُوارُ وعَانةٌ ... وخيطُ نعامٍ يرتَعِي متفرِّقِ
فقلتُ له صوَّب ولا تُجْهِدنَّهُ ... فَيُدْرِكَ من أعلى القَطاةِ فتزْلَقِ

إلى قوله:

فقلنا ألا قد كان صيدُ لقانصٍ ... فَخَبُّوا علينا كلَّ ثوبٍ مروَّقِ

وكذلك يذهب زهير بن أبي سلمى إلى الصورة نفسها، وذلك في قوله[٢]:

إذا ما غَدَوْنَا نبْتَغِي اليدَ مرةً ... متى نَرَهُ فإنَّنا لا نُخاتِلُهْ
فبيْنا نَبغِّي الصيدَ جاء غُلامُنا ... يَدِبُّ ويُخفِي شَخْصَه ويُضائلُهْ
فقال شِياهُ راتعاتُ بِقفْرَةٍ ... بمُسْتأسِدِ القُرْيانِ حُوٍّ مَسائِلُهْ
فقال أميرِي: ما تَرَى رأيَ ما نَرَى ... أنخْتِلُه عن نفسِهِ أم نُصاوِلُهْ
وقلْتُ: تعلَّمْ أنَّ للصَّيدِ غِرَّةً ... وإلا تُضيِّعْها فإنَّك قاتِلُهْ

أما عن الصورة الثانية فهي للصائد الذي يحترف الصيد، ويجعل منه معاشه وكسبه. وهذا المشهد يظهر فيه الصائد الذي يتحسس مكان الصيد، حيث حمر الوحش التي تقبل من مكان بعيد لترد ماء تروي به ظمأها من حر الهاجرة، ولكن سهام الصائد تنطلق نحوها حتى تصيب منها مقتلاً.

وأحياناً يخرج الصائد - ذو الكلاب الضارية - نحو ثور وحشي أو بقرة، فتدور الدائرة وتشعل نار الحرب بينهما حتى تخرج هذه الكلاب خاسرة في أغلب الأحيان أو منتصرة في أحيان أخرى.

---

(١) الديوان نفسه، ص ١٧٢، ١٧٣.

(٢) الديوان، ص ٤٩-٥٣.

ومنظر الصائد في هذه الصورة يروع حقاً، فهو قصير القامة، نحيل العود، غائر العينين، قد أسودت بشرته من قيظ الحر، وشققت لحمه رياح السموم؛ فيظهر عليه الألم والكد في طلب فريسته.. وعلى الرغم من ذلك يعود إلى أهله بيته - الذين ينتظرونه على شوق حار - كاسف البال، خائب الأمل، صفر اليدين؛ وذلك لأنه لم يظفر بطعامه الذي طال انتظاره[١].

وفي ذلك يقول عبيد بن الأبرص[٢]:

وقدْ أغْتَدِي قبلَ الغَطاطِ وصَاحِبِي ... أمِينَ الشَّظا رَخْوُ اللَّبانِ سَبُوحُ
مَرابِضُهُ القِيعانُ فَرْدُ كأنَّهُ ... إذا ما تُماشِيهِ الظِّباءُ تَطيْحُ
فهاجَ لَه حيَّ غداةً فآسَدُوا ... كِلاباً فكل الضَّارياتِ شَحيْحَ

وكذلك يصفه الأعشى وصفاً رائعاً بقوله[٣]

أطْلَسَ طلَّاعَ النِّجَادِ على الْـ ... وحْشِ غَباً مِثْلَ القناةِ أَزَلْ
في إثْرِه غُضْفُ مُقلَّدَةٌ ... يسعى بها مُغاوِرُ أطْحَلْ
كالسيِّدِ لا يَنْمى طريدَتَهُ ... ليس لَهُ مما يُحانُ حِولْ

وأخيراً، يصوره لبيد بن ربيعة بقوله[٤]:

لَاقتْ أخَا قَنَصٍ يسْعَى بأكلُبِه ... شَثْنَ البنانِ لديه أكلبُ جُسُرُ

ويتضح من الصورتين السابقتين فهم الشاعر للإنسان الصائد الذي قام بنفسه أو مع أصدقائه قاصداً طرائده مع كلابه الضارية.

---

(١) الصورة الفنية في الشعر الجاهلي، ص ٣٦.
(٢) الديوان، ص ٣١، ٣٢.
(٣) الديوان، ص ٣٢٩.
(٤) الديوان، ص ٦٩.

٢- أدوات رحلة الصيد:

أدوات رحلة الصيد كثيرة قد حددها شعراء المعلقات، وكان أشهرها:

١- الفرس: وكان يحمل كثيراً من الرموز؛ وذلك لشخصيته المثالية التي يندر وجودها في دنيا الواقع، "فهو فرس مغامر، راحل وسط الأهوال، لاه، ومناور، إلى آخر تلك الملامح التي تجعلنا بإزاء فارس لا فرس"[١].

ولقد تعددت مظاهر إعزازهم للخيل، فقد يبيت الرجل طاوياً، ويشبع فرسه، بل يؤثره على نفسه وزوجته وولده، وكانوا يختصونها بألبان الإبل، تقوية لها، وليس غريباً أنهم سموها ونسبوها كما يسمون أبناءهم، وينسبون رجالهم. فمثلاً كان لزيد الخيل - زيد الخير - خيل كثيرة، منه الهطّال، ومنها الورد، ومنها دوول[٢].

وحديث الشاعر عن الفرس كان نواة أساسية لرحلة الصيد، فامرؤ القيس قد ضرب المثل الأعلى في نعته فرسه، ففي معلقته – مثلاً - بلغ وصفه له في أكثر من سبعة عشر بيتاً، وأبرز خلالها مميزاته الجسدية التي تصوره قوياً، سريعاً، خفيفاً، فهو قصير الشعر ضخم الهيكل، قدير على الجري إلى الأمام وإلى الوراء، متدفق كأنه صخرة تنحدر من أعلى الجبل يدفعها السيل الجارف، ظهره أملس ينزلق عنه اللبد، وينزلف عنه الغلام الخفيف، كأن صباحه إذا اشتد جريه غليان مرجل، حينما يطأ الأرض، فلا يثير غباراً كما تثير الخيل البطاء[٣]. وأظن أن كل هذا الوصف كان تبريراً لموقف الصائد، الذي امتطى فرسه فأعانه على نيل مأربه من الصيد الكثير، حتى اصطبغ صدر الفرس بدماء ما يصاد؛ وفي ذلك يقول في معلقته[٤]:

---

(١) د. محمد عبد المطلب: مقالة، شاعرية الألوان عند امرئ القيس، مجلة فصول، المجلد الخامس، العدد الثاني، القاهرة ١٩٨٥، ص ٥٦.

(٢) أغاني الطبيعة في الشعر الجاهلي، ص ٩٠- ٩٤.

(٣) المرجع السابق، ص ٩٥.

(٤) الديوان، ص ١٩-٢٣.

وقد أغْتدِي والطّيرُ في وُكُناتِها بمنجردٍ قَيْدِ الأوابدِ هَيْكَلِ
مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبلٍ مَدْبرٍ معاً كجُلْمودِ صخْرٍ حَطَّهُ السَّيلُ من عَلِ
كمَيْتٍ يَزِلُّ اللِّبْدُ عن حالِ مَتْنِه كما زلَّتِ الصَّفْواءُ بالمُتَنَزِّلِ

إلى قوله:

فألحَقنا بالهادِياتِ ودَونَه جواحِرُها في صَرَّةٍ لمَ تَزَيَّلِ
كأنَّ دِماءَ الهاديات بنحْرِه عَصارةُ حِنَّاءٍ بشيْبٍ مُرجَّلِ

ويقول أيضاً في قصيدته التي بدأها بقوله[١]:

وقد أغْتدِي والطّيرُ في وُكُناتِها لغيْثٍ من الوَسْمِيِّ رائدهُ خالِ
بعجْلزةٍ قد أتْرَزَ الجَرْيُ لَحْمَها كُمَيْتٍ كأنَّها هِراوَةُ مِنْوَالِ
ذَعَرْتُ بها سِرْباً نقياً جلُودُه وأكْرُعُه وشْيُ البُرودِ من الخالِ

وكذلك يصف زهير بن أبي سلمى فرسه في رحلة صيده بقوله[٢]:

هَبطتُ بمَمسُودِ النَّواشِرِ سابحٍ مُمَرٍّ أسيلِ الخَدِّ نَهدٍ مَراكِلُهْ
تَميمٍ فلونَاهُ فأكمِلَ صُنْعُهُ فتمَّ وعزَّتْه يُداهُ وكاهِلُهْ
أمينٍ شَظاهُ لم يُخرَّقْ صِفاقُه بمنقَبةٍ ولم تُقطَّعْ أباجِلُهْ

ويلاحظ في تلك القصيدة أنه بدأ بوصف فرسه قبل بدئه حديث الصيد.

(١) الديوان نفسه، ص ٣٦، ٣٧. وانظر كذلك ص ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٤٩. وكذلك وصفه في قصيدة أخرى، ص ٧٥، ٧٦. وأيضاً، ص ١٦٣، ١٧٦. ويلاحظ أن امرأ القيس لم يترك قصيدة تحدث فيها عن رحلة الصيد إلا وصف فرسه وصفاً دقيقاً.

(٢) الديوان، ص ٤٨، ٤٩.

الكلاب المدربة:

فقد عني الشعراء بالكلاب عناية ملحوظة، حيث إنهم قد اعتمدوا عليها في الصيد اعتماداً كبيراً.

ويلاحظ أن امرأ القيس قد استخدم الكلاب مرة واحدة في رحلة الصيد التي قام بها مع أصدقائه؛ وذلك لأن فرسه أقدر من غيره في مهمة الصيد؛ فيقول امرؤ القيس(١):

وقد أغْتَدى ومَعِي القانِصَان ... وكُلُّ بِمَرْبَأَةٍ مُقْتَفِرْ
فيُدْرِكُنَا فَغِمُ داجِنُ ... سميعُ بصيرُ طلوبُ نَكِرْ
ألَصُّ الضُّروسِ جَنِيُّ الضُّلُوع ... تبوعُ طلوبُ نشيطُ أَشِرْ
فأنْشَبَ أظفارَه في النَّسا ... فقُلْتُ هُبِلْتَ ألا تنتصِرْ
فكرَّ إليه بمِبْراتِهِ ... كما خلَّ ظهرَ اللِّسانِ المُجِرْ

وهناك صورة أخرى للكلاب الضارية في ملاحقتها لصيد الوحش. وقد غاب عن تلك الصورة صورة الفرس الذي يلاحق الطرائد؛ وذلك حتى يرسم خطوط الصراع بين هذه الكلاب وتلك الطرائد، وفيها يتحدد هلاك أحدهما حيثما أراد الشاعر.

ويتضح ذلك في قول النابغة الذبياني(٢):

وكان ضُمْرانُ منه حيث يُوزعُه ... طعنْ المُعارِكِ عند المُحْجَرِ النَّجُدِ
شَكَّ الفريْصَةَ بالمِدْرَى فأنْفَذَها ... طَعْنَ المَبيْطِرِ إذ يشْفِي من العَضَدِ
كأنه خارجاً من جنْبِ صفْحَتِه ... سَفُّودُ شَرْبٍ نسُوه عندُ مُفتَأدِ
فظلَّ يعْجُمُ أعْلَى الرَّوْقِ مُنْقَبِضاً ... في حالِكِ اللَّونِ صَدْقٍ غيرِ ذي أَوَدِ
لمَّا رأى واشِقُ إقْعَاصَ صاحبِه ... ولا سبيلَ إلى عَقْلٍ ولا قَوَدِ
قالت له النفسُ إني لا أرى طمعاً ... وإنْ مولاكَ لم يسْلَمْ ولم يَصِدِ

(١) الديوان، ص ١٦٠، ١٦١، ١٦٢.

(٢) الديوان، ص ١٩، ٢٠. وفي هذه القصيدة استخدم كلبين مختلفين: ضمران وواسق.

وكذلك يذهب الأعشى، حيث أقام صراعاً وحشياً لا مثيل له بين الكلاب والثور الوحشي، فلا تكاد تبصر هذا الثور الجائع، حتى تنبعث نحوه مهاجمة، فيجد في العدو مسرعاً كالشهاب، متجهاً إلى كثيب من الرمال ليعتصم به، ولكنه صمم على الصمود، حتى سدد الطعن بقرنه؛ وذلك في قوله[١]:

في إثْـــرِهِ غُـــضْفُ مُقلَّـــدَةٌ يَـــسْعَى بهـــا مُغـــاوِرُ أطْحَـــلْ
هِجْـــنَ بـــه فانْـــصَاعَ منْـــصلِتاً كـــالنَّجْم يختـــارُ الكثيـــبَ أبَـــلْ
حتـــى إذا نالَـــتْ نحـــا سَـــلِباً وقـــد عَلَتْـــه روعَـــةٌ وَوَهَـــلْ

وأخيراً، ينقل لبيد الصورة نفسها في قوله[٢]:

فأصبح وانـشقَّ الـضبابُ وهاجَـهُ أخو قفـرةٍ يـشلي ركاحاً وسـائلا
عـوابسُ كالنـشاب تـدْمي نحورُهـا يـــرين دمـــاء الهاديـــات نـــوافلا
فجـال ولم يعكـم لغَضف كأنهـا دقـاقُ الـشعيلِ يبتـدرْن الجعـائلا

وقال أيضاً[٣]:

حتـــى إذا يَـــئِسَ الرمـــاةُ وأرْسَـــلُوا غُـــضْفاً دواجِـــنَ قـــافِلاً أعْـــصَامُها

إلى قوله:

فتقصَّدَتْ منها كَسابِ فضُرِّجَتْ بِـدمٍ وغُـودِرَ في المَكَـرِّ سُـخَامُها

وهنا يعبر عن يأس الرماة من إصابتها بالنبال، بينما هذه الكلاب الضارية قادرة على الظفر بالصيد أكثر من الرماح والقسى.

(١) الديوان، ص ٣٢٩. والغضف: هي الكلاب المسترخية الآذان.
(٢) الديوان، ص ٢٣٩، ٢٤٠. و(ركاحا، سائلا) اسمان لكلبين.
(٣) الديوان، ٣١١، ٣١٢. و(كساب وسخام) اسمان لكلبين أيضاً.

٣- وصف صيد الوحش:

ولقد عبر شعراء المعلقات عن الحيوان المصيد في حديثهم عن مشهد الصيد، وكاد ينحصر في:

١- البقرة الوحشية.

٢- الثور الوحشي.

أما حديث الشعراء عن البقرة الوحشية فقد تمثل في صورتين: الأولى نموذج مثالي للجمال، حيث إنها تشبه في مشيتها وطول أذنابها وبياضها بالعذراء في الملاء المذيل؛ لذلك يقول امرؤ القيس(١):

فعَنَّ لنا سِرْبُ كأن نِعاجَهُ ... عَذَارَى دوارٍ في المُلاءِ المذيَّلِ

فأدْبرن كالجَزْع المفصَّل بينَه ... بجيدٍ مُعَم في العشيرة مُخْوَلِ

فألحَقنا بالهادِياتِ ودَونَه ... جواحِرُها في صَرَّةٍ لمَ تَزَيَّلِ

ورسم صورة أخرى لقطيع من البقر، بيض الجلود، موشية أكرعه(٢):

ذعْرتُ بها سِرْباً نَقيَّاً جلُودُه ... وأكْرُعُهَ وَشْيُ البُرودِ من الخالِ

كأنَّ الصُّوارَ إذ تجهَّدَ عَدوَهُ ... على جَمَزَى خيلُ تجولُ بأجْلالِ

فجالَ الصُّوارُ واتَّقيْنَ بقَرْهَبٍ ... طويلِ القرا والرَّوْقِ أخْنَسَ ذيَّالِ

والصورة الثانية، بقرة ضعيفة تقع في مأساة، حيث يترصدها حيوان ضار من ذئب أو سبع، أو أنها ترعى وتغفل عن صغيرها في صحبة القطيع، ثم تعود آخر النهار فتفاجأ بأشلاء ممزقة من عظام وجلود، فتتجرع الألم والحزن كؤوساً من وقت آخر.

وصورة الصائد تختفي قليلاً في تلك المنظومة التي رسمها في شكل قصصي. لكن لبيد يجمع في معلقته بين البقرة التي أكل السبع ولدها، وبين صورة البقرة

---

(١) الديوان، ص ٢٢.

(٢) الديوان نفسه، ص ٣٧. وانظر كذلك، ص ٤٩، ٥٠. وكذلك ص ٧٦.

مع الرماة الذين يئسوا من إصابتها بالنبال فأرسلوا كلابهم التي تلقى حتفها على يد تلك البقرة؛ فيقول[١]:

أَفَتِلْكَ أَمْ وَحْشِيةُ مسْبُوعةُ ... خَذَلَتْ وهاديةُ الصِّوارِ قِوامُها
خنساءُ ضيَّعتِ الفَريَر فلم يَرِمْ ... عُرْضَ الشقائِقِ طَوْفُها وَبُغامُها
لِمُعفَّرِ قَهْدٍ تَنَازعَ شِلْوَهُ ... غُبْسٌ كواسِبُ لا يُمَنُّ طَعَامُها

إلى قوله:

حتى إذا يَئِسَتْ وأَسْحَقَ حالِقُ ... لم يُبْلِهِ إرْضَاعُها وفِطامُها
وتوجَّسَتْ رِزَّ الأنيس فَرَاعَها ... عن ظهرِ غَيْبٍ والأنيسُ سَقَامُها

وأما حديث الشاعر عن الثور الوحشي، فيظهر فيه شخصية الصائد والكلاب الضارية معاً؛ وذلك لقوة جموحه وسرعته.. وعلى الرغم من ذلك ينجو ذلك الثور ويتخطى تلك العقبات الكؤود.

فيصور ذلك امرؤ القيس بقوله[٢]:

وقد أغْتَدى ومَعِي القانِصَان ... وكُلُّ بِمَرْبَأَةٍ مُقْتَفِرْ
فيُدْرِكُنَا فَغِمُ داجِنُ ... سميعُ بصيرُ طلوبُ نَكِرْ
ألَصُّ الضُّروسِ جَنِيُّ الضُّلُوع ... تبوعُ طلوبُ نشيطُ أَشِرْ
فأنْشَبَ أظفارَه في النَّسا ... فقُلْتُ هُبِلْتَ ألا تنتصِرْ!

وكذلك يستخدم الأعشى - في تصويره للثور - صياداً نحيلاً خبيراً بمهاجمة الوحوش في معاقلها، وكذلك كلاباً مسترخية الآذان، وفي أعناقها الأطواق، يسوقها هذا الصائد المغوار.

---

(١) الديوان، ص ٣٠٧- ٣١١.

(٢) الديوان، ص ١٦١، ١٦٢.

لذلك يقول[١]:

بات يقولُ بالكثيبِ من الْـ ... غَبْيةِ أصْبِحْ لَيْلُ لو يَفْعَلْ
مُنْكَرِساً تحت الغُصُونِ كما ... أحْنَى على شِمَالِه الصَّيْقَلْ
حتى إذا انْجَلَى الصَّباحُ وما ... إنْ كاد عنه لَيْلُهُ يَنْجَلْ
أطْلَسَ طلَّاعَ النِّجادِ على الْـ ... وَحْشِ غَبَاً مِثْلَ القَنَاةِ أَزَلْ

وأخيراً، يذهب لبيد بن ربيعة في تصوير ذلك الثور الذي غلبت عليه الذلة والمسكنة، وباء بغضب على غضب، حيث باكرته الكلاب مع طلوع الشمس، بعد أن قضى ليلاً مظلماً هطلت فيه الأمطار فلم يستطع منها نجاة.

فيقول لبيد[٢]:

كأخْنَسَ نَاشطٍ جادَتْ عليه ... بِبُرْقَةِ واحفٍ إحدى الليالي
أضلَّ صِوارَهُ وتضيَّفتْهُ ... نطُوفُ أمرها بَيد الشَّمالِ
فباتَ كأنَّهُ قاضي نُذُورٍ ... يَلُوذُ بِغَرْقَدٍ خَضِلٍ وضَالِ
إذا وَكَفَ الغُصونُ على قَرَاهُ ... أدارَ الروْقَ حالاً بعدَ حالِ
فَبَاكرهُ مع الإشراقِ غُضْفُ ... ضَوارِيها تَخُبُّ مع الرِّجَالِ

٤- نهاية مشهد الصيد:

إن نهايات مشهد الصيد بارزة ومعلومة، عني بها الشعراء حتى أصبحت عنصراً مهماً من العناصر التي شكلت مشهد الصيد الذي استغرق من الشعراء أبياتاً كثيرة في قصائدهم.

ونهاية مشهد الصيد جاءت في صور كثيرة منها:

١- جاءت لتمثل قمة السعادة بفوز الصائد بصيده ، ودعوة أصحابه من الطهاة

(١) الديوان، ص ٣٢٩، وانظر كذلك، ص ٤١١، ٤١٣.

(٢) الديوان، ص ٧٦- ٨٠.

ليشووا هذه اللحوم الطازجة على المشواة؛ حتى يقدموا لأنفسهم طعاماً لذيذاً شهياً. وهناك أيضاً فتيان من الخدم يقيمون البيت الذي يجمع كل أسباب الراحة.

وتلك الصورة كانت تتردد كثيراً في شعر امرئ القيس، فمثلاً يقول[١]:

وقلنا لفتيانٍ كرامٍ أَلَا انزلوا ... فعالُوا علينا فضْلَ ثوبٍ مُطنَّبِ
وأوتادُه ماذيَّةٌ وعِمادُهُ ... رُدَيْنِيَّةٌ فبها أسِنَّةُ قَعْضَبِ
وأطنابُهُ أشطانُ خُوصٍ نجائبٍ فلما ... وصهْوَتُه مِنْ اتْحمِيٍّ مُشَرْعَبِ
دَخَلْناه أَضَفْنا ظُهورَنَا ... إلى كلِّ حارِيٍّ جديدٍ مَشطَّبِ
كأنَّ عيونَ الوحْش حولَ خِبَائِنَا ... وأرْحُلِنا الجَزْعُ الذي لم يُثَقَّبِ
نمُشُّ بأعراف الجياد أكفَّنا ... إذا نحن قُمْنا عن شِواءٍ مُضَهَّبِ

ويقول أيضاً[٢]:

فقلن ألا قد كان صيدُ لقانِصٍ ... فَخَبُّوا علينا كلَّ ثوبٍ مُروَّقِ
وظلَّ صحابي يشْتَوون بِنَعْمَةٍ ... يَصفُّون غاراً باللَّكيكِ المُوشَّقِ

٢- وجاءت النهاية أيضاً بعدما اشتد الصراع بين الكلاب الجائعة والثور الوحشي، حتى كاد الصراع بينهما يتكافأن، ولكن إرادة الحياة تنتصر على إرادة الموت والفناء؛ فيخرج الثور منتصراً على تلك الكلاب بفضل صبره على القتال، وقوة شكيمته، ورباطة جأشه.

ولكن إرادة الحياة قد تنتصر بوسيلة أخرى هي الهرب وعدم المواجهة. فإن قطيع الحمر والأبقار الوحشية حينما تحس نبأة الصياد تعتمد إلى الفرار والهرب[٣].

---

(١) الديوان، ٥٢، ٥٣، ٥٤.

(٢) الديوان، ص ١٧٥.

(٣) د. سعيد الأيوبي: عناصر الوحدة والربط في الشعر الجاهلي، نشر مكتبة المعارف، الرابط ١٩٨٥، ص ٤٤٢.

فيقول النابغة الذبياني معبراً عن يأس الكلاب من الظفر بالثور[١]:

لَمَّا رأى واشِقُ إقْعَاصَ صاحبِه ولا سبيلَ إلى عَقْلٍ ولا قَوَدِ
قالت له النفسُ إني لا أرى طمعاً وإنْ مولاكَ لم يسْلَمْ ولم يَصِدِ

لكن زهير جمع بين محاولة الهرب وسوء المصير في وقت واحد، وذلك مع صيد العمر الوحشية في قوله[٢]:

يُثِرْنَ الحصَى في وجْهِهِ وهو لاحقُ سِراعُ توالِيهِ صِيابُ أوائلُهْ
فردَّ علينا العَيْرَ من دُونِ إلفِهِ على رُغْمِهِ يَدْمَى نَساهْ وفائلُهْ
فرُحْنا به ينضُو الجيادَ عشيَّةً مَخضَّبةً أرساغُهُ وعوامِلُهْ

وهكذا كانت صور الحيوان في رحلة الصيد ومشاهدها من أروع ما عبر به الشعراء في قصائدهم، فهي مشاهد مرسومة بالكلمات مثلها مثل صور الحوائط، ونقوش الآثار والمعابد؛ فالشاعر يرسم بالكلمة عوضاً عن الأزميل والفرشاة واللون[٣].

وبعد هذا العرض للعناصر التي شكلت فهم شعراء المعلقات لرحلة الصيد ومشاهدها يتضح ما يلي:

(أ) لقد كانت رحلة الصيد تصويراً لبعض مشاهد الطبيعة، والواقع البدوي المعاش.

فلقد استخدم الشعراء للصيد أدوات بعينها في ممارسة صيده، فخص - مثلاً - فرسه دون غيره من حيوانات البادية حينما أراد أن يقتنص له أو لأهل بيته صيداً وحشياً؛ ليكون له طعاماً يتغذى عليه. فما لبس أن امتطى صهوة جواده، وقصد أماكن الفرائس، حيث الأماكن القفرة والمليئة بسباع الوحش.

---

(١) الديوان، ص ٢٠. انظر كذلك ديوان الأعشى، ص ٣٢٩. وديوان لبيد بن ربيعة، ص ٣١٢.

(٢) الديوان، ص ٥٤، ٥٥.

(٣) مدخل إلى الشعر الجاهلي، ص ١٣١. وانظر كذلك: د. سيد نوفل: شعر الطبيعة في الأدب العربي، نشر مطبعة مصر ١٩٤٥، ص ٢٣- ٢٦.

لذلك فزهير بن أبي سمى يتابع صيد الوحش في أماكنه فيقول[١]:

فَبيْنَا نُبغِيِّ الصَّيْدَ جاءَ غلامُنا يَدِبُّ، ويُخفي شَخْصَهُ ويُضائِلُهْ
فقالَ شياهَ راتعاتُ بقَفْرةٍ بِمُسْتأسِدِ القُرْيانِ حُوٍّ مَسائِلُهْ

(ب) إن مشاهد الصيد - كما سبق أن قلت - لم تكن تعبر عن رحلة صيد حقيقية قام بها الشاعر على أرض الواقع، أو أنها تعبر عن تجربة عاناها الشاعر، أو تصور حادثة رآها؛ ونتيجة لذلك فقد تكررت صور مشاهد الصيد تكراراً يلفت النظر، "فإذا ما قرأت مشهداً من مشاهد الصيد لشاعر من الشعراء فيقع من نفسك أنك قرأته من قبل"[٢].

ومثال ذلك وصف الثور الوحشي عند كل من: امرئ القيس وزهير.

فثور امرئ القيس الذي نعته في قصيدته السينية بأنه إذا أظلم عليه الليل طفق يحتفر لنفسه مكنساً يأوي إليه بالقرب من شجرة الغضا، وبات فيه حتى إذا ما أشرقت الشمس صبحته كلاب الصيد، لكنه نجا منها.

وهذا أيضاً ثور زهير بن أبي سلمى الذي وصفه في قافيته بأنه أوى إلى مكنسه، فتداعى التراب عليه، وظل على حالته معتصماً به من عصف الريح، وشدة المطر؛ حتى قضى ليلته. وعلى الرغم من ذلك ومع إشراقة الصباح إذ يفاجأ بكلاب شديدة السرعة أيضاً[٣].

(ج) ويلاحظ أيضاً أن شعر الصيد قد كثر عند شعراء المديح كالنابغة وزهير والأعشى، وقل عند باقي شعراء المعلقات[٤].

---

(١) الديوان، ص ٤٩، ٥٠، ٨١. انظر كذلك: ديوان عبيد بن الأبرص، ص ٣١، ٣٢.

(٢) شعر الطرد، ص ٧٢، ٧٣.

(٣) الديوان امرئ القيس، ص ١٠١. وديوان زهير بن أبي سلمى، ص ٧٦، ٧٧.

(٤) لقد ذكر عبيد في ديوانه، ص ٣٢ (الظبي) مرة واحدة في ملاحقة كلاب الصيد له. وذكر الحارث بن حلّزة في معلقته، ص ٣٧٤ (النعامة) في شدة حذرها من القناص أيضا.